مجلة المرابط

العدد : ١٨٤ الموافق في جمادى الثانية ١٤١٧ هجري ١١ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : استمسكوا بالإسلام ولا تستخدموه... !	بقلم : عبد الله هارون

باستقراء تاريخ الحكم الإسلامي بعد عصر الخلفاء الراشدين ، تبين أن كثيراً من السلاطين والملوك والأمراء حكموا تحت رداء الإسلام مستخدمين له لا مستمسكين به... حيث غابت المؤسسات التي تحد من النزعات الفردية ، ومال الحكام إلى الاستبداد ، فحلّت السيطرة المادية محلّ السيطرة الشرعية ووليَ القضاء والفتوى - في الغالب - علماء السلاطين...! فأصبحت الغلبة للسلطان المستبد والسيف وليست للنص ، وغدت المصلحة الشخصية هي المتحكمة ، وضعفت تقوى الله عز وجل وخشيته...

كما دأبت الأنظمة التي حكمت البلاد بعد الاستقلال في العقود الأخيرة على رفع شعار الإسلام خالياً من المضمون ، حتى أن بعضها تفتخر الآن بأنها استطاعت أن تعمل على تجفيف الينابيع الدينية. حتى الجماعات الإسلامية والمعارضة للأنظمة المستبدة ، تم اختراقها واستخدام الإسلام عن طريقها للوصول إلى إقامة أنظمة متنكرة للإسلام ومحاربة للمتمسكين به ، وأخشى أن تكون هذه الأجيال هي الموصوفة بقوله تعالى : { **فخلف من بعدهم خلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** } [مريم:٥٩].

الفرق بين الاستمساك بالإسلام واستخدامه

ورد في قواميس اللغة أن : مسك بالشيء وتمسّك به واستمسك بمعنى واحد هو : أخذ به وتعلّق واعتصم. وقد جاء الأمر من الله تعالى بالاستمساك بالوحي فقال عز وجل : { **فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم ❋ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** } [الزخرف:٤٣-٤٤] .

والاستمساك بالإسلام هو تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل ؛ { **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى** } [لقمان:٢٢] ، ومما ورد في معنى هذه الآية : أنه من يخلص لله تعالى عبادته ويقبل عليه سبحانه بكليته « يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فيعتقد أن الله تعالى يراه » فقد اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به...

وللعظة والعبرة أخبرنا الله عز وجل عن أهل الكتاب فقال : { **والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجرَ المصلحين** } [الأعراف:١٧٠] ، أي منهم طائفة تمسكت بالتوراة ، وعملوا بما فيه ، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله تعالى ، وذلك التمسك منهم هو الإصلاح. أما

الآخرون فقد نقل الله تعالى لنا ما قالوه في قوله عز وجل : { **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ❋ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ❋ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** } [الزخرف:٢٠-٢٢] ، أي أنهم أشركوا مع الله تعالى في العبادة وزعموا زعماً باطلاً لا برهان لهم عليه.

هذا ولا يكون الاستمساك بالإسلام قائماً إلا إذا كفر المسلم بالطاغوت بكل صوره : شيطاناً أو وثناً أو رأس ضلال في الحكم أو التشريع... الخ ؛ فقد قال تباركت أسماؤه : { **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيِّ فمن يكفرْ بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** } [البقرة:٢٥٦] .

أما استخدام الإسلام فهو اتخاذه مطية للوصول إلى التمكين لغير الحق ، بأن يرفع الإسلام شعاراً أو يتخذ ستاراً ، فينخدع بذلك السذج والبسطاء الذين لا علم لهم بحقيقة الأمور ، وقد جاءت النصوص في الكتاب والسنة التي تكشف ذلك السلوك الذي يسلكه المنافقون لتحقيق أهدافهم ، وسأكتفي هنا بالتذكير بقول الرسول ﷺ في الأحاديث التالية :

١- « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ، ولهم عذابٌ أليم : شيخٌ زان ، **وملك كذاب** ، وعائل مستكبر » [رواه مسلم وغيره].

٢- « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، وإن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ؛ إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » [متفق عليه].

٣- « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر ، فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه لم يف » [متفق عليه].

والمتأمل في واقع البلاد الإسلامية حكاماً ومحكومين ، والمطلع على أحوالهم الظاهرة ، وما افتضح من أمور كانت سرية يتبين له ما يلي :

١- استخدم الحكام الإسلام من زمن طويل ، وحتى الآن ، ويكفي التذكير بقول القائل : « ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من أبي دؤاد ، وكان أخذ عن واصل بن عطاء مسائل الكلام حتى تضلع من

الكلام ، وأصبح داعية إليه ، فلما اتصل بالمأمون دسّ له القول بخلق القرآن ، وحسنه عنده ، وصيره يعتقده حقاً مبيناً ، إلى أن أجمع رأي المأمون في سنة ٢١٨هـ على الدعاء إليه ، فكتب إلى نائبه على بغداد إسحق بن إبراهيم الخزاعي ، ابن عم طاهر بن الحسين ، في امتحان العلماء كتاباً »[١] .

وقد علق الشيخ جمال الدين القاسمي على هذه الرسالة بقوله : « هذه صورة كتاب المأمون في المحنة ، وقد ذيله بأشخاص كبار ، فقهاء بغداد وأئمة الأثر والرواية ، وتم الأمر بالمحنة التي طار شررها وطال ضررها... »[٢] .

والأمر ما زال على ما هو عليه بل أشر من ذلك ، فالفتاوى التي يريدها الحكام جاهزة لدى دور الإفتاء ، ومجامع الفقهاء ، وهيئات كبار العلماء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

٢- لقد وقع الاختراق والاستغلال لكبرى الجماعات الإسلامية وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الأستاذ فتحي يكن يطالب بضرورة حتمية الإعداد الأمني للعمل الإسلامي لأسباب كثيرة وعدّ منها : « حفظ الجماعات من اختراق (الأفكار والسياسات) لنهجها ، فلا يتسرب إليها فكر غير فكرها ، أو سياسة غير سياستها ، ولا تحكمها إلا الخطط التي ارتضتها لنفسها سواء كان هذا الاختراق مخطط له من قبل أعدائها ، أو ناتج عن مراكز قوى لديها أو لدى أصدقائها »[٣] .

ويكفي لبيان حقيقة ما أشار إليه الأستاذ فتحي يكن أن نقرأ ما ذكره الأستاذ صلاح شادي عن عبد الناصر تحت عنوان : هل كان من الأخوان ؟ حيث يقول : « ماذا لو جرى في قدر الله أن يتولى أحمد السكري أو عبد الرحمن السندي أو أحمد الباقوري حكم هذا البلد ؟ وماذا لو جرت صلتنا معهم أو مع أحدهم على نفس المنوال الذي جرى به الحال مع عبد الناصر لإنجاح الانقلاب ؟ »[٤] .

ثم يستطرد قائلاً : « لقد كان عبد الناصر للأسف فرداً منا ، لم يتميز بسوء أبعد مما تميز به السندي حين خان مسؤوله حيال حسن عبد الحافظ ومحمود زينهم ، فاستعمل حقاً ليس له وجهر بذلك ، في الوقت الذي كان عبد الناصر يمهد منذ سنة ١٩٤٦م في خفاء لهذا الذي فعله السندي في علانية !!

وإذا كان عبد الناصر بعد ذلك قرر سراً مع مجموعة ضباط الحركة قطع صلته بقيادة الجماعة قبل أشهر قلائل من قيام الحركة ، فإن السندي قد أعلن في حادث ملأ أسماع العالم كله احتلال دار الأخوان ، وخروجه ومن معه على طاعة المرشد بحركة مسرحية شدّت عن وسيلة الجماعة الرصينة في سحب ثقتها بقائدها إذا قامت موجهاً »[٥] .

وهذا المثال ليس هو الوحيد في البلاد الإسلامية ، وما مأساة المسلمين في أفغانستان هذه الأيام

إلا صورة من الصور المتكررة لاستخدام الإسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

خلاصة ونداء

١-تبين لنا مما سبق أهمية الزعامة السياسية وخطورتها ، وهذا الذي قال عنه السابقون : « الناس على دين ملوكهم » ، وبصدد شرح هذه الحقيقة يقول الأستاذ المودودي - رحمه الله تعالى - : « وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية ، لا يخفى عليه أن المسألة التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها ، إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها. وذلك كما نشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه ، وأن لا بد للركاب أن يسافروا - طوعاً أو كرهاً - إلى تلك الجهة نفسها ، فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية. ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي قد رسمها الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمَّة الأمر وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجمهور وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية وإنشاء النظام الجماعي وتحديد القيم الخلقية »[٦] .

وهذه السنة الاجتماعية وما ينتج عنها هي التي ذكرها الله تعالى في قوله : { **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً** } [الإسراء:١٦]. وهؤلاء المترفون هم الذين أخبر عنهم الحق سبحانه في قوله عز وجل : { **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** } [الزخرف:٢٣].

السؤال المطروح هل استوعب المسلمون هذه السنة ؟!

٢- على الذين يريدون الاستمساك بالإسلام أن يوقنوا :

i- أن دعوة الإسلام تعمل على إزالة الذين استخدموا الإسلام واستغلوه في استعباد الناس بحيلهم ومكرهم كما تعمل في نفس الوقت للقضاء على الطواغيت بكل صورهم وأشكالهم ، وهؤلاء وأولئك ينزعجون من مجرد وجود الحق مطبقاً ، ولو لم يخض معهم أي معركة... وهذا الذي أرشد إليه القرآن وهو ينقل لنا تصرف المستكبرين من قوم شعيب حيال دعوته في قوله تعالى : { **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا** } [الأعراف:٨٨].

ii- أن الطاغوت لا يستسلم من قريب... ولا يؤمن ببطلان حكمه ، وعدم شرعية سلطانه بسهولة ، مما يدفعه إلى المقاومة بكل السبل والوسائل - حتى الدموية منها - وهذا الذي أخبرنا به العليم بخلقه في قوله سبحانه : { **وقال الملأ من قوم فرعون أتذرُ موسى وقومَه ليفسدوا في الأرض ويذرَكَ وآلهتَك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** } [الأعراف:١٢٧].

iii- أن قوى الاستكبار والقهر والاستغلال العالمية والمحلية تعلم يقيناً أن ظهور الحق هو إيذان بإزالة سلطانها ، وإبطال مسوغات بقاء حكمها الجائر... وهذا الذي أنبأ الله تعالى به في قوله : { **وقال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليم ❋ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون** }[الأعراف:١٠٩-١١٠].

نعم على الدعاة للإسلام والحركات الإسلامية العاملة إدراك ذلك ، واستيعاب سنن الله تعالى في الكون والأنفس والمجتمع ، واتخاذ الأسباب للاستمساك بالإسلام ومنع استخدامه لتحقيق أهداف الطواغيت ، مع اليقين بقول الله عز وجل : { **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** }.

الهوامش :

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة ، الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، بيروت ، ص ٦٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧.

(٣) أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي ، فتحي يكن ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، بيروت ، ص ١٠٨.

(٤) صفحات من التاريخ - حصاد العمر - ، صلاح شادي ، شركة الشعاع للنشر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، الكويت ، ص ٣٢٧.

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٦) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ، أبو الأعلى المودودي ، مؤسسة الرسالة ، باكستان ، سنة ١٣٧١هـ ، ص ٨.